

أندريه ميكيل مستشرق أخلص للثقافة العربية

اختلف مع طه حسين وترجم أمهات الكتب العربية ناقدا الاستشراق



كاتب نأي بنفسه عن الموروث الاستعماري للثقافة الغربية

1961 عندما عُيِّن مسؤولاً عن البعثة الثقافية الفرنسية في مصر، تمهيدا لعودة العلاقات الدبلوماسية بين بلد الكنانة وفرنسا، وكانت قُطعت عقب العدوان الثلاثي، ووجد نفسه مع بعض رفاقه في السجن متهماً بالتجسس، رغم حصانته الدبلوماسية، مجبراً على ارتداء زيّ خاص بالجواسيس عند حبسهم، عرضة للاذن الجسدي واللغوي والمعنوي، ولم يفرج عنه وعن رفاقه إلا بعد تدخل الجنرال ديغول، الذي طالب السلطات المصرية باتخاذ قرار من اثنين: إما إخلاء سبيلهم، أو محاكمتهم دون تأخير.

ثمّ أضحّ أن المخابرات المصرية أخطأت في تأويل المراسلات التي كان الدبلوماسيون الفرنسيون يتبادلونها من ذلك مثلاً عبارة "حيوان سياسي" الأرسطية التي أخذت تأخذ الإساءة إلى جمال عبدالناصر. وقد تحدث بترك عن تلك التجربة الأليمة في رواية "وجبة المساء" دون تهويل أو استدرار شفقة أو إدانة.

ولم تمنعه تلك التجربة المريرة من مواصلة مشروعه، إذ ظلّ وفيّاً لعشقه، لا يفتكّ ببحث في اللسانين، لسانه الأصلي ولسان الآخر، العربي تحديداً، عن حوار متبادل لإقامة "تشديد ثنائي" على حدّ تعبيره.

من الاستشراق بنأى بنفسه عن الموروث الاستعماري للثقافة الغربية، مصطفاً إلى جانب ماسينيون وبلاشير وبيرك ومونتوي الذين كانوا يتبنون التوجّه نفسه، حيث يؤكّد على ضرورة التزام استشراق ما بعد الكولونيالية بقواعد محددة، كي لا يجرد البحث عن الموضوعية، أهمها: أولاً، ضرورة البحث عن تصور المسلمين أنفسهم من لشخصياتهم التاريخية والتراثية، من أجل فهم موضوعي لتلك الشخصيات، ثانياً، عدم تدريس النحو العربي وقواعده من منظور اللغات الغربية، ثالثاً، عدم إسقاط قواعد الشعر الغربي وذائقة متلقية على الشعر العربي، بل وضع ذلك الشعر في إطاره التاريخي والثقافي والبحث عن موقعه داخل بيئته الأصلية.

وخلافاً لما ذهب إليه طه حسين عن الشعر الجاهلي، يعتقد ميكيل أن الأدب العربي الذي سبق الإسلام لم يبل دلالاته وقيمته إلا بمجيء الإسلام، الذي أعاد هيكله الثقافات السابقة له، ومنح اللغة العربية أساساً متيناً، ووحدة شاملة سمحت لها بالانتشار خارج الفضاء الجغرافي الذي كانت محصورة فيه، أي الجزيرة العربية.

كان يمكن أن يقلع عن مشروعه بعد الحادثة الغربية التي تعرض لها عام

(إيزوت). وبلغ به عشقه للغة العربية أن كتب بها قصائد كثيرة، منها ما هو منثور، ومنها ما هو موزون على بحور الشعر العربي، كما في "أشعار متجاوبة" وهو كتاب أعده وقدم له أيضاً كاطم جهاد.

لم يكن أندريه ميكيل عاشقاً للغة فقط، متجرداً عن أهلها، بل كان يعيب على الغرب جهل حضارتنا وتعامله معنا بكثير من الاستعلاء، مديناً دعاء التفوق العرقي والحضاري الذين لا يظهرهم صورة العربي وثقافته إلا مشوهة، حتى صار يُحسب على العرب.

ومن الطرائف الدالة أن بعض أقربائه، حين قرر العرب قطع النقط عن الغرب في مطلع السبعينات قالوا له "لقد دافع عربك جيداً عن أنفسهم هذه المرة"، ما يعني أنهم يعدونه واحداً منّا. ذلك أنه حقق ما عناه الفيلسوف ميشيل دو سيرتو "وثبة نحو الآخر" جعلته يتماهى مع العرب وثقافتهم وينذر لهم حياته، دون أن يتخلّى عن هويته ولغته وثقافته ورؤيته للعالم، وقد عرف عنه نقده الشديد للاستشراق التقليدي، وتبنيه نمطا

لا يمكن أن تتخلص من فضائنها الذي نشأت فيه برغم طابعها الفنتازي؛ فضلا عن مختارات شعرية لأبي العتاهية وابن زيدون وابن خفاجة وسواهم، مبنوثة هنا وهناك في كتب كثيرة.

وقد بلغ به تشبّعه بالآداب العربي أن حاكى أساليبها، سواء في الشعر أم في السرد، حيث استلهم من ألف ليلة وليلة بعض قصصه، ومن فن المناظرة العربي كتابه "مناظرات بغدادية". ورغم أن الأدب القديم مشغله الأساس، فقد اهتم أيضاً ببعض ملامح الأدب العربي المعاصر، فكتب عن الرواية العربية المعاصرة وعن التقنية الروائية عند نجيب محفوظ والبنية الشعر لدى إلياس أبو شبكة.

تشبّع ميكيل بالآداب العربية وثقافتها على نحو دفعه إلى اتخاذها منطلقاً لأعماله الإبداعية، إذ صاغ إبداعات تتمثل ذلك التراث كرواية "ليلي، ليلي" عن سيرة الشاعر قيس بن الملوح، و"حكايات عشق، من المجنون إلى ترستان" التي قارن فيها بين مثاليين عن الوله في الشرق (قيس وليلى) وفي الغرب (أسطورة ترستان

اقترن الاستشراق في الأذهان بمنظومة تفكير وتمثّل تشهد على الكيفية التي قارب بها الغرب الآخر وعامله عبر التاريخ. وبما أن الغرب يملك النفوذ والمعرفة، وكتاهما تحوّل له فرض رؤيته للأخر كحقيقة صارمة، فإنه خلق في وجه من الوجوه الشرق، والشرقيّ وعالمه، والاستشراق بهذا المعنى ملجأ من الاستعمار والإمبريالية. لكن هناك من المستشرقين من عشق الشرق لذاته دون خلفيات.

إحياء جانب من تراثنا، الفرنسي أندريه ميكيل الذي خصه الشاعر والمترجم والأكاديمي العراقي كاظم جهاد بكتاب صدر مؤخراً ضمن سلسلة "مائة كتاب وكتاب" التي يرعاها معهد العالم العربي بباريس ومؤسسة الملك فيصل، وهي سلسلة مخصصة للتعريف بجهود المفكرين والكتاب ممن مزاوا بأعمالهم جسوراً وطيدة بين الثقافتين العربية والفرنسية.

يفضل ميكيل أن يوصف بالمستغرب، نظراً إلى العلاقة الحميمة التي أقامها مع اللغة العربية وآدابها منذ مطلع الخمسينات في معهد إعداد المعلمين بباريس ثم في دمشق، بتوجيه من أستاذه ريجيس بلاشير، ثم تخصص في تدريسيها في جامعة إيكس أون بروفانس وخاصة في الكوليج دو فرانس، الذي منحه كرسي اللغة العربية وآدابها طيلة ثلاثين سنة.

ولم يكتف بتدريس التراث العربي والإشراف على الرسائل الجامعية التي تناولت أوجها منه، بل شفع ذلك ببحوث مهمة مثل "جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر"، و"الإسلام، من الخليج إلى المحيطين"، الذي يعرض فيه الحضارة العربية - الإسلامية في امتداداتها الكبرى من شبه جزيرة العرب إلى حوض المتوسط، فعبورها المحيطين الهندي والاطلسي، وشمولها غرب الإسلام ومناطق أخرى نائية، و"اللغة والآداب العربية التقليدية"، و"العرب: من الرسالة إلى التاريخ".

وشغفها أيضاً بترجمات لعيون المدونة العربية التراثية من بينها "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ، و"كلياته ودمته" لابن المقفع، وخاصة "حكايات الف ليلة وليلة" (بالتعاون مع جمال الدين بن الشيخ)، وبغضله نشأت حركة اشتغال جماعي في تحليل الحكايات، بدأت عملها في فرنسا على أيدي باحثين من العرب والفرنسيين، ثمّ انتشرت عالمياً، حيث لا يزال البحث للمهتمين بدراسة تاريخنا وتراثنا. وقد اضطلع ميكيل داخل هذه الحركة بدور أساس، فقد عمل على تحليل مفهوم "العرب والعجيب" الذي رأى فيه النابض الأهم في تكوين الحكايات، وربطها بخلفيتها التاريخية والاجتماعية، لأن الحكايات في رأيه

أبويكر العبادي
كاتب تونسي

الاستشراق، بما هو علم الشرق بجغرافيته وتاريخه وثقافته وحضارته. ظل منذ أن اتخذ صبغة علمية محل مساجلات لا تنتهي، بين مناهضين أربوا عن غيرة المسلم على تراثه، لاسيما أن الظاهرة الاستشراقية تزامنت على امتداد القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين مع الحركة الاستعمارية والتبشيرية، وارتبطت بها في مواقع غير قليلة، إضافة إلى طبيعة المنهج الذي توخاه المستشرقون في مقاربة التراث الإسلامي وخاصة النص الديني، وهو منهج يقوم على معالجة فيلولوجية ولسانية وأنتروبولوجية وتاريخية لا تنال بقداسته التخصص، بقدر ما تبحث في نشاتها وطرق انتقالها.

أندريه ميكيل لم يكتف بتدريس التراث العربي بل قدم بحوثاً وترجمات من العربية التي ألف بها عدة كتب

أما المدافعون فقد نظروا إلى الاستشراق بعين موضوعية، واعترفوا بدور المستشرقين في ترجمة أمهات الكتب التراثية وتحقيقتها، وفضلهم في إعادة اكتشاف المفكرين العرب، فضلاً عن الاكتشافات الأثرية، وبعث المتاحف الشرقية.

بغض النظر عن كل الانتقادات الموجهة إلى المستشرقين، ينبغي الإقرار بأنهم أدوا دوراً كبيراً في إحياء عدد هام من كتب التراث الإسلامي، وبالتالي حفظها من التلف والضياع، ووفروا للمهتمين بدراسة تاريخنا وتراثنا مادة أولية تسمح لهم بإنجاز بحوثهم ودراساتهم. كالإلماني كارل بروكلمان والإيطالي فرنسيسكو غامبريني والمجري غولدمسيهر والفرنسيين إيفاريست ليفي بروفنسال وماسينيون. من بين هؤلاء الذين نذروا حياتهم

تعدد الزوجات أفكار مغلوبة لم تفهم القرآن

بن أبي طالب لذلك، فلم يتزوج في حياة فاطمة، وكذلك عثمان بن عفان لم يتزوج في حياة رقية أو أم كلثوم.

إباحة التعدد تكون فقط في حالة الأراذل نوات القصر المحتاجين للرعاية والتربية لكن المسلمين فهموا الآية خطأ

يبدو من توافه الأمور أنني أناقش اليوم هذا الموضوع في ظل كل ما نعانينه من وضع مز، إلا أن الطين يزداد بلة بزواج ثان وثالث، وكان الأسر لا يكفيها ما تعانينه، ليأتي رب الأسرة الذي لا يجد ما يسد به رمق أطفاله، ليراف بامرأة وينقذها من "برائن العنوسة"، وحتى لو أنه متمكن مادياً فالمرء برمته يجب ألا يكون مقبولاً، وكل ما يساق من أسباب لا تعدو عن كونها حججاً واهية، والمرأة التي تقبل أن تقاسمها أخرى زوجها لا حول لها ولا قوة.

المقال ينشر كاملاً على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

تجمعان، ويجب أن تعلم في حال رغبة زوجة في الارتباط بعقد مع أرملة ذات أيتام ويحق لها طلب الطلاق مع كامل حقوقها في هذه الحالة.

وبرأيي أن المجتمع يمكنه إقرار العمل بالتعددية أو إلغاؤها وفق ما يجده مناسباً لأفراده، فإذا منعه فقيد الحلال هو المهمة الأساسية للمؤسسات التشريعية أصلاً، وأي قرارات من هذا النوع لا تحمل الطابع الأبدي.

أما القول بأن منع التعددية مخالف لشرع الله فلا أساس له.

ويرى محمد حبش، أستاذ الفقه والدراسات الإسلامية، أنه يحق للمرأة اشتراط عدم الزواج من أخرى وتسجيل هذا ضمن العقد، بينما تختلف القوانين في الدول العربية ما بين من يمنع التعددية (تونس)، ومن يشترط علم الزوجة الأولى، فيما يسمح القانون السوري للزوجة اشتراط ما تريد في العقد بما لا يخالف الشرع، فيمكن للمرأة السورية أن تتشدد بأنها وضعت شرطاً في عقد الزواج ألا تقوم بكَيّ الملابس، لأن عدم الكَيّ لا يخالف الشرع، لكن منع زوجها من الزواج بأخرى يخالفه.

والمفارقة أن الكثيرات يدافعن عن الفكرة ويرضين بها ولا تشكل لهن أي امتحان من هذا المبدأ، في حين أن كتب السيرية تذكر اشتراط الرسول على أزواج بناته عدم الزواج عليهن، وامتنثال علي

القصر المحتاجين للرعاية والتربية، إذ يمكن أن ترتبط مع الأرملة بعقد نكاح (لا ترث وليس لها صداق مقابل التزام الرجل برعاية أولادها اليتامى)، على أن تقبل هي ذلك عن طيب نفس وليس اضطرارياً، وألا يشكل ذلك عبئاً مادياً على الرجل فلا يتمكن من إعالة العائلتين فيظل أولاده أو أولادها.

إضافة إلى ذلك فإن الزوجة واحدة، يربطها بالرجل ميثاقاً غليظاً، وفي حال الفراق تستبدل بأخرى لكنهما لا

وعليه لا يمكن اعتبار أن اليتامى هن "النساء اليتيمات" فاليتيم هو القاصر الذي فقد أباه، ولو كان أباه حياً فهو ليس بحاجة إلى من يعينه، ولا يمكن اعتبار رجل في الثلاثين يتيماً، ولا امرأة في الخمسين يتيمة، وبالتالي لا ينطبق على النساء الفاقات للاب وصف "اليتيمات" و"يتامى النساء" ليست "النساء اليتيمات"، بل أطفالهن الأيتام. ويؤكد الدكتور شحرون أن إباحة التعدد تكون فقط في حالة الأراذل نوات

يتجرأ على محاولة تصحيح فهم المبدأ الذي أجازته الله، أو تقنيته فالتهم التي تكال له جاهزة وغير قابلة للمراجعة. ولو كنا سنقف على الآية التي

استند إليها الفقه عبر العصور في إباحة التعدد "وَأِنْ حَقَّكَمُ الْآلُ فَتَقَسَّمُوا فِي الْيَتَامَى فَاَنْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّا قَدْ نَكَحْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أُذُنِي أَلَّا تَعْلُوا" (النساء 3)، فإننا نلاحظ إهمال الشق الأول منها، حيث اعتاد الناس الاستشهاد بـ"مَمَّا قَدْ نَكَحْتُمْ" بدلاً من "وَأِنْ حَقَّكَمُ الْآلُ فَتَقَسَّمُوا فِي الْيَتَامَى فَاَنْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّا قَدْ نَكَحْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا" التي كانت على أنه قد يربي الرجل يتيمة إذا أراد أن يتزوجها فعليه أن يعاملها بالقسط كغيرها من النساء وإلا فليدعها ويتزوج ما طاب نفسه من غيرها.

لكن للدكتور الراحل محمد شحرون رأي آخر مختلف، ينطلق من اعتبار يرى في الإسلام ديناً راقياً، وعالمياً يصلح في نظره، لكل زمان ومكان. ويرى في هذا السياق أنه رغم احتواء التنزيل الحكيم على آيات تتعلق بعصر النبوة، إلا أن آيات الرسالة جاءت لكل الناس في مختلف العصور، ومن ثم لا يمكن النظر إليها وفق عادات ذلك العصر، ومنها الآية التي نتعينا هنا، فإذا كان واردا يوماً ما الزواج من الطفلة اليتيمة المرباة فهذا الفهم لا يبدو في نظر شحرون صالحاً اليوم ولا إنسانياً،

رنا زكار
كاتبة من سوريا
مقيمة في بيروت

أن يشجع الرجال فكرة تعدد الزوجات هو أمر قد نجد له تبريراً في ظل مجتمعات تميزها الذكورية، أما أن تقبل النساء الفكرة ويدافعن عنها أيضاً فهذا ربما جدير بالدراسة والبحث.

وإذا كان الاعتقاد السائد أن الفكرة أصبحت من الماضي ولم تعد مقبولة في يومنا هذا، وأنها لا تشكل ظاهرة منتشرة وواسعة في مجتمعاتنا العربية، فإنها فكرة ما تزال فاعلة في عقول الكثير من المسلمين، والأكثر من المسلمات أيضاً، وما عليك إلا أن تطرح موضوع تقيد تعدد الزوجات أو منعه كما في تونس، والسير نحو قوانين أكثر انصافاً للمرأة، حتى يخرج لك "المؤمنون" الورعون الخائفون على شرع الله، وقد دفعهم ورعهم للتصدي لك تحت دعاوى مخالفة أوامر رب العالمين، واعتراضهم لصل حدّ الغضب. وإن كنت لست بصد تقيد الموضوع من نواحيه الاجتماعية، إلا أن ما بلفت النظر هو مدى تشبّه "المسلمين" بهذا الحق الإلهي الممنوح للرجل، باعتباره السيد المجل، المالك لامتياز جمع أربع زوجات إن شاء، وما عليه إلا التفضل على النساء والانتقاء من بينهن، أما من



تعدد الزوجات ما يزال قضية المرأة إلى اليوم (لوحة للفنانة هيلدا حيارى)